المبحث الثانى

حقيقة حُسْنُ التعليل ومعناه

لابد من معرفة حقيقة هذا الفن والمعنى الذى يدور حوله ، ولا يكون ذلك إلا بالوقوف على آراء أهل البصر والفقه بهذه الفنون البلاغية من العلماء المختصين ، وذلك حتى تتضح المعالم الفنية لهذا اللون البلاغى والغرض الذى من أجله يجىء فى كلام البلغاء : فقد عرفه العلامة العلوى بقوله : هو « عبارة عن أن تقصد إلى حكم من الأحكام فتراه مستبعدا من أجل ما اختص به من الغـرابة واللطف والإعجـاب أو غير ذلك فتأتى على جهة الاستطراف بعلة مناسبة للتعليل فتدعى كونها علة الحكم لتوهم تحقيقه وتقريره نهاية التقرير . . . »[1] .

وهذا التعريف - من وجهة نظرى - يعد أسد التعريفات وأوضحها فى بيان حقيقة أسلوب « حسن التعليل » ، وسأعرض بعد ذلك لبقية التعريفات التى ذكرها العلماء .

ثم إن من ينعم النظر يجد أن هناك علاقة وثيقة بين هذا المعنى البلاغى لحسن التعليل ، والمعنى اللغوى الذى يدور حوله التعليل من التلهى والتجزى وبيان السبب[2] وذلك أننا فى البلاغة لا نسأل عن جوهر العلة وغايتها ، وإنما نسأل عن كيفية توصيل مفهوم العلة إلى المخاطب ، وعن البراعة فى تصوير العلة والمعلول فى إطار من التناسب[3] .

● **نقد وتسديد :**

تعرض صفى الدين الحلى لبيان حقيقة هذا اللون فعرفه بقوله : « والتعليل هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع أو متوقع ، فيقدم قبل ذكره علة وقوعه لكون رتبة

(١) ينظر الطراز ٣ / ١٣٨ .

(٢) ينظر فى ذلك : الصحاح ، أساس البلاغة ، لسان العرب مادة : (علل) .

(٣) ينظر البديع : تأصيل وتجديد ص : ١٨٣ .

العلة أن تتقدم على المعلول ، وقد يتقدم المعلول على العلة بحسب ترتيب الكلام ، ويكون التقدير تقديمها أصلا »[1] .

وجاء بعده ابن حجة الحموى وتقبل طريقه فى التعريف لحسن التعليل ، ولكن بالنظر الدقيق نرى أن ذلك التعريف منهما يمكن إطلاقه على مطلق التعليل لحكم من الأحكام ، ولم يقل أحد من العلماء بدخول هذا الفن وهو التعليل فى علم البديع كما لا يخفى على أهل البلاغة البصراء بألوانها وفنونها فكان هذا التعريف منهما لحسن التعليل غير دقيق ولا سديد .

وكان ابن أبى الإصبع المصرى قد سبقهما إلى ذلك التعريف أيضا وخلط فيه بين التعليل وحسن التعليل ، كما هو واضح من الأمثلة والشواهد التى حاول بها تفسير تعريفه لما أسماه « بالتعليل »[2] .

وقد عرَّف العلامة الخطيب القزوينى هذا اللون بقوله : « ومنه حسن التعليل : وهو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقى ، لأن الوصف إما ثابت قصد بيان علته أو غير ثابت أريد إثباته »[3] ، وصار هذا التعريف هو الأساس لمن جاء بعده ، وذلك لو جازت عبارته واختصاره لأقسام هذا اللون وأنواعه .

ثم يعرفه العلامة الرعينى - أيضا - تعريفا يكشف فيه عن حقيقة حسن التعليل وشروطه والفائدة المرجوة منه فيقول : « هو أن تستنبط للشىء علة مناسبة غير حقيقية مخالفة لعلته الأصلية ، وشرطها أن تكون على وجه لطيف يحصل بها زيادة فى مقصودك من مدح أو غيره »[4] ، وكان قد سبقه إلى ذلك التعريف العلامة شهاب الدين محمود الحلبى[5] .

● **الفرق بين التعليل وحسن التعليل :**

ذكر العلماء التعليل وحسن التعليل ، فهل هناك من فرق بينهما ؟ .

---

(١) ينظر : شرح القافية البديعية ص : ٢٨٣ وما بعدها - صفى الدين الحلّى .
(٢) ينظر : تحرير التحبير ص ٣٠٩ . ابن أبى الإصبع المصرى .
(٣) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ .
(٤) ينظر : كتاب طراز الحلة ص : ٥٦٣ ، العلامة الرعينى .
(٥) ينظر : حسن التوسل ص : ٥٥ .

وإنى أرى أن :

● **التعليل** : فى ضوء ما قاله العلماء أعم من حسن التعليل ، وذلك لأنه يشمل التعليل وحسن التعليل ، وقد جاء تعريف العلماء له بقولهم : « هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع أو متـوقع فيقدم قبل ذكره علة وقوعه لكـون رتبة العلة أن تتقدم على المعلـول كقوله تعالى : ﴿ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

ومثاله من الشعر قول البحترى :

ولو لم تكن ساخطا لم أكن أذم الزمان وأشكو الخطوبا

وقد يتقدم المعلول على العلة بحسب ترتيب الكلام ويكون التقدير تقديمها أصلا، كقول ابن رشيق :

سألت الأرض لم جعلت مصلّى ولم كانت لنا طهرا وطيبا
فقالت غير ناطقة لأنى حويت لكل إنسان حبيبا[2]

ولعل فى ذلك ما يؤكد عدم دقة صفى الدين الحلى وابن حجة الحموى فى تعريفهما لهذا اللون البلاغى كما مَرَّ آنفا .

وعلى ذلك فإنه يمكن القول بأن :

التعليل : هو تلك الطريقة الفنية التى يعرض بها المبدع العلة فى إحداث ذات الحدث من خلال ذاته فى إطار من التناسب[3] ، سواء حمل إلينا ذلك العرض طرافة فى التعبير وتخيلا فى العلة أم لا ، بأن كانت العلة حقيقية .

● **أما حسن التعليل** : فهو كما أوضح العلماء استنباط علة للشىء غير حقيقية مخالفة لعلته الأصلية ، وشرطها أن تكون على وجه لطيف يحصل بها زيادة فى المقصود من مدح أو غيره »[4] ، وقد أفاد العلماء أن ذلك يجىء على وجهين :

---

(١) سورة الأنفال : آية رقم ٦٨ .

(٢) ينظر : تحرير التحبير ص ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، الكافية البديعية ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٣) ينظر : البديع تأصيل وتجديد ص : ١٨٣ .

(٤) ينظر: حسن التوسل ص ٥٥ ، طراز الحلة ص ٥٦٣ ، نفحات الأزهار على نسمات الأسحار ص : ١٦٨ عبد الغنى النابلسى .

الأول : أن يأتى التعليل صريحا إما باللام كقول ابن رشيق :

سألت الأرض لِمَ جعلت مصلى ولِمَ كانت لنا طهرا وطيبا

فقالت غير ناطقة لأنى حويت لكل إنسان حبيبا

وذلك حيث أحسن الشاعر فى الاستخراج وألطف فى التعليل ، فلأجل ما قاله كان ذلك علة فى كونها طهورا ومسجدا .

الثانى : أن لا يكون التعليل صريحا فى اللفظ وإنما يؤخذ من جهة السياق والنظم والمعنى كقول بعض الشعراء :

فإن غادرت الغدران فى صحن وجنتى فلا غرو لم يزل منه وابل يهمى[1]

● **شروط حُسْن التعليل :**

أوضح أهل العلم أنه لابد لتحقيق « حسن التعليل » من ثلاثة شروط ، وذلك حتى يكون إثبات العلة فيه من البديع :

(**أولا**) أن تكون العلة غير حقيقية مما يجعلها فى حاجة إلى مزيد نظر وتأمل

(**ثانيا**) أن تكون على وجه لطيف يحصل بها زيادة فى المقصود من مدح أو غيره ، أى أنها تكون نتاج نظر دقيق فى الأشياء والأمور .

(**ثالثا**) أن تكون على سبيل الإصرار والقطع وأنها هى العلة ولا سبيل سواها ، وذلك لأنها لو كانت على سبيل الشك أو الظن لخرجت إلى « ما يلحق بحسن التعليل »[2] .

فحسن التعليل إذن : هو كل صياغة فنية تسوغ وقوع الحدث من وجهة نظر صاحبها تسويغا يهدف فى المقام الأول إلى الاستطراف والملاحة .

* * *

(١) ينظر: الطراز ٣ / ١٣٩ ، ١٤٠ ، حيث أثبت الغدران فى صحن وجنته بعلة أن الممدوح وابل يهمى والوابل الهامى علة كذلك فى الغدران .

(٢) ينظر : المطول ص ٤٣٦ .